

الفصل الثاني
إنها الليلة الأخيرة
فى
وادي الراحة..!

بقلم أنيس منصور

إذا كان اللواء محمد نبوى إسماعيل نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى أيام حكم الرئيس الراحل محمد أنور السادات يعتبر «شاهد أول» بحكم المنصب.. فإن الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور رحمه الله يعتبر هو الآخر «شاهد عيان أول» أيضا بحكم الموقع ومن المؤكد أن الذين عاشوا وعاشوا هذه الفترة ولهم «دراية ما» بالذى حدث فى كواليس السياسة المصرية يعرفون أن موقع أنيس منصور لدى رأس القيادة السياسية - وأنا هنا أقصد الزعيم الراحل أنور السادات - كان مشابها تماما لموقع الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل لدى جمال عبد الناصر.. مع اختلاف الأدوار..

كان أنيس منصور أحد المقربين القلائل للزعيم أنور السادات إلى موقعه قريب جدا من الزعيم.. وكان أنيس منصور يلتقى بالسادات يوما كل أسبوع على الأقل.. هذا اللقاء كان شبه مقدس.. وقد كتب أنيس منصور عقب حادث المنصة مقالا اعتبره مدخلا مهما أيضا لاستجلاء الحقيقة.. وهذا هو مقال الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور الذى نشر «بمجلة أكتوبر» عندما كان رئيسا لتحريرها وعقب حادث المنصة وهو يعتبر مدخلا مهما أيضا لاستجلاء الواقع.

كان ذلك في رمضان بالإسكندرية.. وقد لاحظت أن الرئيس السادات أسرف كثيرا في استخدام عبارة: إذا أعطانا الله عمرا فسوف أفعل كذا وكذا العام القادم..

قلت له: سيادة الرئيس كأنك شيخ في التسعين.. سوف يعطيك الله عمرا إن شاء الله.. عمرا تعيش به وعمرا تعيش به مصر أيضا..
وكأننى لم أقل كلاما له معنى فكان يهز رأسه ويضحك قائلا: إن الأعمار بيد الله..

لم يكن يقولها استسلاما إنما يقولها أملا في الله أن يطيل عمره.. وفى نهاية الحديث معه قال: سوف نلتقى فى وادى الراحة ليلة القدر..

فشكرته على هذه الدعوة الكريمة.. وقلت مداعبا: إذن فلن تكون راحة فى وادى الراحة!

فقال: إياك تقلقنى وإلا وضعتك فى السجن.. وإذا لم يكن هناك سجن فسوف أطلق عليك الرصاص وأستريح.. وإذا لم يتيسر السلاح هناك فسوف أتركك وحدك فتظل تائها كاليهود أربعين عاما..

وأمام الرئيس وزملائى من محررى مجلة أكتوبر فى ميت أبو الكوم قلت: إن للرئيس تهديدات عنيفة يداعب بها ولا يقصد معناها.. فالرئيس السادات عندما قرأ المقال الذى فى «الأخبار» وفصلنى بسببه الرئيس جمال عبد الناصر.. قال: ما كان يجب أن يكتفى بفصلك..
كان لابد يشنقك!

وعلقت على ذلك أمامه وأمام زملائي : يا سيادة الرئيس إنك تحيرني ..
فأنت الرجل الذى لا يفصل أحدا من عمله تطالب بشنقى بينما الرجل
الذى يشنق الناس قد اكتفى بفصلى ..!

وفى إحدى المناسبات وفى حضور د. عائشة راتب قال لى : سوف
أضعك فى السجن .. فقلت مداعبا: يا سيادة الرئيس هل نسيت أننا فى
عصر أنور السادات؟ فقال : أعرف. ولكن هل نسيت أنني خريج سجون
وأستطيع أن أضع فى جيبك قطعة من الحشيش؟
وتلفت إلى د. عائشة راتب ولم أعرف ما الذى يقال. وضحكنا
جميعا.

وكان الحديث مع الرئيس السادات متعة، فكان لطيفا رقيقا مجاملا.
وكان إذا تحدث :

تحمس واندمج فى الحديث. فيتحول إلى خطيب .. وفى أثناء الحديث
يقول لقد قلت لكم من قبل .. وقد أجبت عن أسئلتكم من لحظات ..!
ولم يكن أحد معى .. ولكنه اعتاد أن يتحدث إلى الملايين حتى
لو كان الذى يحدثه شخصا واحدا .. فعينه لا تغيب عن النظر إلى الميكرفون
والكاميرا .. وعن ملايين القراء ..

وكثيرا ما جاءت السيدة جيهان السادات ترحوه أن يتوقف عن العمل
والتفكير الذى طال، وتعرض عليه القليل من الطعام لعله يستريح. ولكنه
كان يرفض إلا أن يكمل كلامه. وإلا أن ينتهى تماما من الذى يريد أن
يقوله : فهذه هى راحته وهذه هى متعته ..

وفى ذلك اليوم من شهر رمضان نبهنى الرئيس السادات إلى أن أعد الأسئلة وأن أجيء إليه بعد أن يتناول إفطاره فى الساعة مساءً فى وادى الراحة».

ولا أحد يعرف بالضبط من الذى أطلق اسم : وادى الراحة؛ على هذه المساحة الكبيرة من الأرض بين الجبال. هل استراح فيها اليهود بعد خروجهم من مصر؟ هل استراح فيها موسى وقومه بعد أن كلمه الله وأنزل عليه وصاياه العشر؟ أول دستور أخلاقى مكتوب على الحجر. أول دستور ضاق به صاحبه عندما وجد أهله يعبدون العجل الذهبى؛ فكسر الأحجار على رؤسهم! هل استراح الناس لأنهم قد وجدوا سبيلين للحياة: سبيل الوصايا العشر - أى الطريقة الأخلاقية المثالية للحياة، وسبيل عبادة الذهب، أى الطريقة العملية بين الناس؟ .. هل استراح اليهود إلى أنهم قد اهتموا إلى سر الحياة الإنسانية: الذهب.. هو الإله وهو القوة والأمل وهو الحرب وهو الموت؟. هل استراح موسى عليه السلام إلى أنه قد وقف فى نهاية أنبياء بنى إسرائيل الذين حاولوا وفشلوا، وقاتلوا وقتلوا؟ إن موسى لم يقتله اليهود، ولكن وفاته أقصى من القتل.. لقد رأى الأرض الموعودة ومات قبل أن يدخلها. دخلت هذه الأرض عينه وقلبه وعقله، ولكن لم تدخلها قدماه.. فكأنه وعدهم بالأرض فدخلوها، ولم يدخلها هو؛ فكأنه مات ضحية الوعود الضخمة التى لم يقدر على تحقيقها.. وكأنهم عندما دخلوها، أحسوا أنه كان فى استطاعتهم أن يفعلوا ذلك دون حاجة إلى نبي.. هل وادى

الراحة اسمه الحقيقي: الوادى راحة؟.. أى إن الراحة فى الوديان
والعذاب فى الجبال.. أو أن الاسم هو دعوة إلى كل مرهق تعباً أن
يكون له فى حياته واد.. أى إذا كانت الحياة جبلاً وهضاباً وبحارا
وصحارى وأنهاراً، فلا راحة إلا فى الوادى.. فالواديان فى الأرض
الخضراء غير الوديان فى الأرض الصفراء فالوادي الأخضر مساحة
من الأرض الخضراء هادئة وساكنة.. مثل قرية ميت أبو الكوم عند
الرئيس السادات.. أو مثل هذه الهضبة المستوية.. إن الرئيس السادات
فلاح.. ابن الحقل والشجرة.. ابن المساحات الواسعة.. ابن الجدران
المتباعدة والسقوف العالية.. ولذلك كانت أمتع جلساته فى الحديقة..
تحت الشجر.. تحت السماء.. هل كانت الزنانة هى أقصى وأقصى
درجات العذاب؟ من المؤكد أنها كانت كذلك.. وكذلك كانت البدة
والكرافتة والحذاء ذو الأربطة.. فارتدى القمصان المفتوحة والأحذية
بلا أربطة والجلاليب.. وكان يشجع الآخرين على لقائه كذلك.. إن
البدة زنزانة والجزمة المربوطة زنزانة والمكتب والبيت.. ولذلك اختار
المساحات الواسعة ليكون هادئاً مسترخياً.. بل إنه كان حريصاً على
أن ينتقل بمقعده تحت الأشجار من الشمس إلى الظل.. أو من الظل
إلى الشمس.. وكان بعيداً عن التليفون دائماً وبعيداً عن الراديو أيضاً
فقد كان يعيب على سلفه جمال عبد الناصر أنه كان حبيس المكتب
والسرير، معلقاً من أسلاك التليفون - تحترق أعصابه مثل سيجارته
التي لا تنطفئ..

وكنت أداعب الرئيس السادات فأقول له : هناك نكتة يا سيادة الرئيس للشاعر الفارسي سعدى قال : سألوني يوما من الذى علمك الأدب؟ فأجبت تعلمته من رجل قليل الأدب كلما فعل شيئا امتنعت عنه..!

وقد لا حظت أن الرئيس لم يضحك لهذه النكتة. ومع حق ربما كان معناها أن الفرق بينه وبين جمال عبد الناصر.. هو أنه يخالفه فقط وهذا موقف سلبي. ليست فيه إيجابية ولا إبداع فقد اختلف كثيرا جدا عن جمال عبد الناصر.. فجمال عبد الناصر كان يشعر أنه أكبر من مصر.. وأنها أقل كثيرا من طموحه ولذلك اتحد مع سوريا والعراق وليبيا والسودان واليمن.. ولو لم ينكسر فى حرب ٦٧ لطالب بقونس والجزائر والمغرب.. ولكن أنور السادات كان يشعر أن مصر كبيرة جدا إنه شرف عظيم أن يكتفى بها. فالقاهرة وحدها فى حجم سوريا ولبنان والأردن وكل دول الخليج.. ولذلك فجمال عبد الناصر قد جعل مصر واحدة من كيان طموح اسمه الجمهورية العربية المتحدة مع دول أخرى. ولكن أنور السادات أعاد للجمهورية العربية المتحدة اسمها التاريخى العظيم الذى ورد فى القرآن الكريم: مصر.. واهتزت القلوب والحناجر والأقلام لكلمة: مصر. وعندما ذهب الناس فى أحلامهم إلى أبعد من ذلك وطالبوا بعودة العلم المصرى الأخضر القديم ذى الهلال والنجوم، أوقف السادات هذا الاتجاه الذى لا ينتهى إلا بعودة الملكية وقضية الهلال والصليب.. فأعلن إننا سوف نحفظ

بالعلم الذى عبرنا به القناة ووضعهنا عاليا فوق حائط الهزيمة والهوان الذى اسمه : خط بارليف..

وقد فعل الرئيس السادات مصر واسم مصر وشرف مصر ما لم يفعله كثيرون من زعمائها. فقد كانت حساسيته شديدة لكرامته وحريةه وتأكيده ذاته.. أى بحثه عن الذات حتى يجدها. فإذا وجدها أكدها.. وتمنى ذلك لمصر ولكل شاب فى مصر: أن يبحثوا فى أنفسهم عن أنفسهم.. فإذا عرفوها صانوها.. وإذا صانوها أكرموها.. وإذا أكرموها رفعوها وإذا رفعوها حاربوا من أجلها حتى يتحقق السلام مع النفس ومع أعدى الأعداء. وكذلك فعل أنور السادات. سألت الرئيس السادات؟ ما هو بالضبط المعنى الذى تريد أن تؤكد به ذهابك إلى سيناء.. وإلى وادى الراحة؟.

وكان يجيب: المعنى بسيط جدا.. أريد ألا ينسى المصريون أن هذه أرضهم. مع الأسف لم يشعر المصريون كثيرا بأن سيناء أرضهم إلا عندما احتلها اليهود. وإلا عندما حاربنا من أجل استعادتها. واليهود أنفسهم يقولون إن سيناء كانت فى أيديكم.. فلماذا لم ترصفوا شارعاً أو تبنيوا مدينة أو تحفروا بئراً؟! وأنا أوافقك على أن مصر ليست مقدسة بالمسكان إنما السكان فيها موزعون توزيعاً سيئاً.. ربع سكان مصر فى القاهرة وحدها... ولذلك فالمصريون يجب أن ينتشروا فى بلادهم.. أن يعلوا سيناء.. وأن يرتبطوا بالأرض. فيشعر كل إنسان أنه عندما يحارب فهو يحارب عن أرض يملكها. تماماً كما يحارب

عن ثوبه ومقعده وبيته وأسرتة.. هذا هو الانتماء الذى أريد أن أغرسه فى كل نفس.. هل تعرف سر تعسكى بقرية ميت أبو الكوم؟ إن ميت أبو الكوم، كما رأيتها، قرية صغيرة. لا شىء. لا معالم ولا ميزة لها. ولكنها قريتى. أرضى. أهلى.. ألم تسخر أنت من البيوت المواجهة لبيتى فى ميت أبو الكوم لأن الفلاحين ما يزالون يضعون روث البهائم على الأسطح؟!

وكان فى وسعى أن أمر بإزالة هذه المخلفات الحيوانية والبيوت.. تعاماً كما أستطيع أن أمر باختفاء الميكروفونات المدوية الآن فى كل القرية.. ولكنى أرفض هذا الاستبداد.. هذا القهر.. هذا التزوير.. وأهم من ذلك: أرفض أن أقضى على حرية الفلاح فى أن يكون على راحته فى بيته يفعل ما يشاء.. وأهم من ذلك أن يشعر أنه لا فرق بينه وبينى.. فأنا رئيس الدولة.. نعم.. لكن رئيس الدولة لا يمنع من أن يشعر بكرامته وحرية وأنه فى بيته وبين أهله على النحو الذى يريد.. هذه المعانى هى التى أحرص عليها: الانتماء للأرض والحرص على الأسرة الصغيرة التى هى ينبوع الحرص على الأسرة الكبيرة التى هى مصر.. فأنا أريد أن يذكر الناس سيناء.. وألا يفكر أحد فى أنها منقى للمغضوب عليهم.. ولذلك فأنا حريص على أن يذهب إليها الشبان.. وقبل أن يذهبوا يجب أن نوفر لهم الحياة الكريمة. وأن نعطيهم شرف الريادة، وأن نكرم كفاحهم ونجاحهم. هذا هو المعنى البسيط الذى ألف وأدور حوله، فاليهود عندهم مساحات أضيقت جداً من

نفس الرمال الجافة . ولكنهم أقاموا على هذه الأرض جناتهم الصغيرة . أقاموها بالإيمان وغرسوها بالعلم . ولذلك نقلت إلى سيناء «ميت أبو الكوم» الجديدة . وليس ذلك تمجيذا لقرية ميت أبو الكوم . ولكنه تكرار جديد للقرية المصرية المجهولة . وبداية لقرى أخرى كثيرة .



وفى وادى الراحة أقيمت بيوت خشبية بسيطة واستراحات للزوار وكبار موظفى الدولة من الوزراء والمهندسين . وزرعت الأشجار . وأضيئت . ثم نقلت إليها المياه . وعلى جانب القرية الصغيرة جدا توجد استراحة الرئيس . وهى أيضا صغيرة . وطبيعى أن يكون أوسع مكان فيها ذلك الصالون ذا المقاعد الأربعة الذى يجلس فيه الرئيس وأمامه النوافذ قد انفتحت على وادى الراحة .

وكان الجو منعشا وباردا . وقد ارتديت ملابس ثقيلة . والليل هادى . وجبل موسى والجبال الأخرى أشباح رمادية : كأنها كانت فى كواكب أخرى توقفت فى وادى الراحة . وذلك الضباب الذى يلفها كأنه كلمات بيضاء كالأمل . أو كأنه ذكريات موسى عليه السلام معلقة بين السماء والأرض . أو كأنه الوصايا العشر تنزل من عند الله كل يوم وكل ساعة منذ كان موسى هنا . وكأن الوحى لم ينقطع . وكأن كلماته لا تتوقف ، سواء كان هناك موسى أو لم يكن . أو كأنه أرواح هائمة . أو كأنه السموات الأرضية . فهناك السموات وهناك السموات العلا التى يصعد إليها الكلام الطيب . والسموات الدنيا التى يصعد

إليها الكلام الخبيث، ويظل هكذا عالقا بالأرض وبعيدا عن السماء .. أو أن الضباب حقيقة علمية بسيطة جدا. إنه بخار الماء تصاعد من الأرض. فلما ارتفع اصطدم بدرجة حرارة منخفضة فتحول إلى ضباب.. وإذا انخفضت الحرارة أكثر تحول إلى ندى.. وإذا انخفضت أكثر تحول إلى مطر أو إلى سيول.. إن الذى تراه رقيقا غالبا ليس إلا بخار الماء يتردد بين أن يظل بخارا أو يعود إلى أصله ماء يسقط على وادى الراحة فيشعل الحياة فى البذور الجافة والأعشاب.. وليست أرض السواهى إلا كفا أو راحة يد ممدودة تباعدت أصابعها، وتنتظر رحمة السماء بالأرض.. وما رحمة السماء إلا الماء. فهل هو وادى الراحة: لأن الجبال والبخار والأرض قد اهتدت إلى هذا الاتفاق فيما بينها واستراحت إلى ذلك...



ثم جاء من يقول لنا: سيادة الرئيس يريدك أنت والمهندس حسب الله الكفراوى بعد نصف ساعة..

وكنا قد جلسنا مع اثنين من الصحفيين الأجانب.. أحدهما نمساوى والآخر ألمانى. جاء ليؤلفا كتابا عن حياة الرئيس السادات.. ربما كان ذلك هو الكتاب المائة فى ثلاثين لغة.. وكان الجو روحانيا.. وكان الكلام عن الأرواح والأشباح والملائكة والشياطين والحياة بعد الموت.. وربما كانت السيدة جيهان السادات، صغرى كريمات الرئيس هى التى لوحت بهذه المعانى.. واحتدم النقاش بين سكرتيرى الرئيس

وبينى وبين المرسلين الأجانب ولم يكن من الضروري أن نهتدى إلى شئ فلا شئ نهائى فى قضية تيدأ: بما هى الروح؟ والله سبحانه وتعالى قد قال ﴿ وَنَسْتَوْنَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة الإسراء: ٨٥)

ولم أكن حريصا على شرح نظريتى فى هذه القضية. فقد أشفقت على كريمة الرئيس. فهى صغيرة رقيقة شديدة الحساسية. وهى لا تقوى على مثل هذه الخوارق المخيفة التى لا داعى لأن أروىها فى هذه الليلة الهادئة الساكنة الحانة الصوفية النورانية..

ومن بعيد جاء صوت القارئ الطبيب د. نعينع.. إنه صاحب أداء جميل مثقف. وجاء صوته يتردد فى جوانب وادى الراحة.. كأنه يتنزل علينا من السماء كلمة كلمة.. وكأن جبريل بدلا من أن يحمله إلينا كلاما أو نورا فإنه يلحنه فيجئ غنائيا ساحرا.. وكان القارئ يقرأ قصة موسى وهارون وفرعون..

يقول الله: ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى ﴾ (سورة طه: ١٧) قال: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَاىَ أَنْوَكْتُوْا عَلَيْهَا وَأَهْبَسْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِىَ وَلِىَ فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴾ (سورة طه: ١٨)

قال ﴿ قَالَ أَلَيْسَ لِمُوسَىٰ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِعْ فَذَا هُوَ حَيْثُ نَسِعَ ﴾ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّاكَ وَجَعَلْنَا خُرُوجُكَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِيُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ آسْرِجْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَخْلَصْ عُنُقَهُ مِّنْ لِّسَانِي ﴿٢٧﴾

بِقَهْرٍ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرَزِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ
فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ .. (سورة طه : ١٨ - ٣٢)

ويتعالى صوت القارئ إلى قمة الجبال ويشق ستائر الضباب وهو
يقول: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ
أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْرِضِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْرِضِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَبِغِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَسْتَوِي
أَخْتَاكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ
وَقُلْتَ نَفْسًا فَفَئِجْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنَّا فُتْنًا فَلْيَسْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ
قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ۗ .. (طه : ٣٥ - ٤١).

ويعود القارئ نعيث لينتقل إلى سورة أخرى فيقرأ من سورة
الأنبياء، ويبلغ قمة الأداء والجمال حين يتلو: ﴿ وَتَوَسَّأَ إِذْ نَادَىٰ مِنْ
قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ .. (سورة
الأنبياء: ٧٦)

وعندما يتلو: ﴿ وَذَا التَّنُورِ إِذْ ذَهَبَ مُخَدَّبًا فَلَمْ يَنصُرْهُ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ
﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّاتِهِ مِنَ الْغَمِّ ۗ وَكَذَلِكَ نُشْعِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ..
(سورة الأنبياء: ٨٧ - ٨٨)

الله على كلام الله .. الله على هذا الكلام وهذا الأداء وهذا الصوت
والصدى والنور والظلال، والجبال ووادى الراحة .. الله فى كل مكان ..
ولعل المعنى الذى أقصده من وادى الراحة أن يجد الإنسان هذا

الشفاء لنفسه ومن نفسه وغيره.. هل الذى أشعر به هو الراحة؟ نعم.. هل هى الراحة الأبدية..؟ لا.. إنما الراحة الأبدية يبلغها الإنسان عندما لا يكون جسدا. فما دام هناك جسد فكل شئ مؤقت.. كل شئ له شهادة ميلاد وله تصريح دفن.. ولكن عندما يسقط هذا الجسد. الذى هو ثوب الروح، تكون الراحة الأبدية، لأن الروح أبدية.. لأن الروح من الله كما أن الأشعة من الشمس.. والفكر من عقل الله والإيمان من هدى الله.. فكان وادى الراحة ليس إلا عتبة واسعة أمام باب الجنة..

وليس هذا هو حال الذين يعيشون فى وادى الرحة.. إنهم لا يجدونه واديا. إنما يجدونه صحراء قاحلة جافة... إنه «واد» الراحة ولكنه راحة لمن يجئ من بعيد.. يجئ بعض الوقت ليتزود بالمعانى والأمل والتوبة ويعاود الحياة بعيدا.. فهو - إذن - وادى الراحة المؤقتة من التعب الطويل.. فاليهود عندما جاءوا إليه كان الخروج من مصر قد أرهقهم فجاءوا هنا ينشدون جوار الله ما افتقدوه إلى جانب فرعون.. ولن ولم يذهب فرعون... فكل فكرة تتسلط علينا هى فرعون.. وكل عذاب يقهرنا هو فرعون.. فلا هرب من فرعون النفس والجسد والعقل، إلا بالبحث عن أحد الوديان فى أى مكان..

وجاء موعدنا مع الرئيس السادات. دخلنا فوجدنا الرئيس بالبيجامة والشبشب، جلس فى أحد الأركان. وكان المكان مفزعا حقا. فالألوان زرقاء والإضاءة فلوروسنت. إنها ليست غرفة تطل على وادى الراحة..

إنها مثل غرفة عمليات يستطيع الإنسان أن يرى فيها جسمه وشعيرات كفه.. ولكن الرئيس خفيض الصوت. هادئ الملامح. وتكلم هو طبعاً. وحدثنا عن معنى مجيئه إلى هذا المكان ومعاني وادى الراحة. والراحة نفسها. وعن آماله فى أن يقام مجمع الأديان تتجاوز فيه المعابد وقلوب الناس. ولتكون المسافة بينهم أصغر. بين المعابد وبين الناس.. فكل حروب التاريخ لها مذاق دينى. أى أن الذين يموتون فى سبيلها، إنما يموتون فى سبيل الله. فيتقاتل الناس من كل الأديان.

أما طموحه العظيم فهو ألا تكون حرب بعد حرب أكتوبر. إن هذا أمل لا تقوى عليه البشرية. ولكنه أمله.. فإن لم يكن له فضل فى تحقيقه. فلا أقل من أن يؤمن به.. وجاءت أكواب الشاي.. فالرئيس يشرب شايًا كثيرًا. ومع الشاي يدخل البايب بسكين صغير. وهذا السكين يتلوث عادة. أما الذى يفعله الرئيس فهو أن يمسح السكين فى الأرض. وقد تكون أرضًا خشبياً أو سجادة عجمية. وقد فعل ذلك وهو يضحك؟ أنا فلاح مفيش فايدة.. فلاح!

ولم أجرؤ أن أقول للرئيس: إن هذه الأضواء بأهرة موجهة للعين.. تبدد الهدوء وتحول وادى الراحة إلى ميدان الشهداء.. لم أجرؤ.. ولو قلت فلا شئ يمكن عمله فلا يمكن تغيير هذه الأضواء.. وربما كان الرئيس هو الذى طلبها. ومن المؤكد أنه فعل ذلك. لأن له رأياً فى كل شئ فهو الذى اختار اللون والمقاعد.. واختار شكل المقاعد ومكانها وحجمها. لاشك فى ذلك. ولم أجرؤ أن اعترض على الشاي. فأنا لا أشربه ليلاً خوفاً من الأرق. ولكنى شربت مرة وثانية وثالثة.. وربما عاشرة..

ولم يكن الرئيس حريصا على أن يتحدث طول الوقت.. فانتهزت أقرب فرصة. وتحولت بالحديث إلى جهة أخرى تماما، قلت: سيادة الرئيس ما هي الشجاعة؟

فتوقف لحظة، ثم أدرك بذكائه اللعاج أنني أريد أن أغير الموضوع وأن أدخل في حوار.. أو حديث فقال: أن تقول الحق ولو على نفسك. فقلت: ما هو الصبر؟

قال: أن تتحمل ما يحدث بعد ذلك دون شكوى.

قلت ما هو الحب؟

قال: هو الراحة التي تحسها مع الناس وبعد أن يذهب الناس وعندما تتذكر ذلك.. وعندما تنام..

قلت: ما هو القرار؟

قال أن ترى ما سوف يحدث قبل أن يحدث.

قلت: لعلك تقصد قرار المبادرة بالسلام؟

قال: نعم.. لقد رأيت عبر عشرات السنين ما يمكن أن يحدث. فأقدمت عليه.. واندھش الناس لذلك. ولا يزالون في دهشة..

قلت: ما الذى تقصد عندما تقول عن نفسك أنك لست تقليديا فى أفكارك وقرارك؟

قال: قرار الحرب وقرار السلام وقرار إخراج الروس وقرار تصفية مراكز القوى.. كلها غير تقليدية.. فالحرب لم يكن هناك أحد يجرؤ على اتخاذ قرار بشأنها خوفا من الهزيمة المتكررة.. وقرار السلام

لم يجروُ أحد على أن يحقق السلام مع إسرائيل.. ولكن قرارى غير تقليدى.. جديد.. رائع مروع..

قلت: ما هو الوطن؟

قال: أن يشعر كل إنسان أن قريته مثل ميت أبو الكوم بالنسبة لى.. وأن كل ذرة رمل هى الوطن.. وكل قطرة دم هى الكرامة.. وكل موت هو استشهاد..

قلت: لا تؤاخذنى يا سيادة الرئيس إذا قلت لك هل تنبأ لك أحد كم سنة سوف تعيشها؟.. إنه سؤال غريب.. ولكنه سؤال.. وأنا شخصيا قد تنبأ لى عالم كفى فى «هونج كونج» أننى سوف أموت فى سنة ١٩٦١.. ونسيت ذلك.. ولكن صديقا له نفس اسمى هو الذى توفى.. ولعل نبوءته قد صدقت.. فقد فصلت من رئاسة تحرير «مجلة الجيل» ومن التدريس فى الجامعة فى ذلك العام.. فلعل ذلك نوع من الموت الأدبى.. ألم تعطف كفك لأحد؟

قال: أنت قلت لى فى أسوان إن زوجة حاييم هرتزوج تزور مدير المخابرات الإسرائيلى الذى جاءنى معك، كانت تريد أن تقرأ كفى.. وهى قد قرأت كفى عدد من زعماء العالم.. وتقول إنها قرأت لك كفى.. ولو عرفت جيهان بوجودها لأعطتها كفىا فهى تحب ذلك، كمعظم السيدات.. ولكن لا أحب أن يقلقنى أحد على مستقبلى.. ثم إننى لأصدق ذلك.. فالأعمار بيد الله.. وقد أموت الآن، وتقع فى ورطة.. ما الذى تفعله بى؟..

وانزعجتنا لهذا الذى يقوله. فقلت: آسف لهذا السؤال السخيف..
سيادة الرئيس.. ولكن أحد المنجمين المكسيك قد تنبأ لكل الذين حولك..
ولم يشأ أن يقول نبؤته لك.. ولما سألوه قال: إلا هذا الرجل لأننى أحبه.
وقال الرئيس: آه.. إذن فاسأل هذا الرجل.. هل هو يحبنى ولذلك يريدنى
أن أموت بسرعة.. لأستريح من وجع القلب.. أو هو يحبنى فيتوقع أن
أعيش طويلا؟ عليك أن تسأله أنت.. هل تعرف أننى فى بعض الأحيان
أشعر كأننى عشت أطول مما يجب.. وأن من الواجب أن أستريح.
وأحيانا أشعر أننى مهما عشت فإننى لن أستطيع أن أحقق كل ما أريد
لمصر.. ولكن صدقنى.. إذا مت الآن وفى هذه اللحظة وفى هذا المكان
فسوف أكون مستريح الضمير.. فقد أعطانى ربى أكثر مما أستحق..
وأكثر مما كنت أحلم..

قلت: سيادة الرئيس هل بقيت عندك أحلام لم تحققها؟
أجاب: شخصيا.. لا شيء.. أما لمصر فلا يزال عندى الكثير. فنحن
الآن نمشى فى الطريق الصحيح..

قلت: سيادة الرئيس إننى ألاحظ أن أولادك. وخصوصا جمال
ليست له أية اهتمامات سياسية.. ألا تحب أن يكون له نشاط سياسى..
أو يكون مشغولا بالسياسة أو الحياة العامة..؟

أجاب بسرعة رافضة: أحمد الله على ذلك.. وأنا قد أوصيت زوجتى
جيهان بألا يشتغل أحد من أولادى بالسياسة.. فقد تعذبت كثيرا. وأعتقد
أن اشتغاله بالسياسة مستحيل لأنه من جيل مختلف ونشأ فى ظروف

مختلفة.. إنه أحسن حالا.. لا.. لا أحب لابنى أن يعمل فى السياسة..
فمجال العمل و النجاح واسع.. فلماذا السياسة بالذات ؟
أما المهندس حسب الله الكفراوى فقد أسعد الرئيس كثيرا عن
مشاريع التعمير و الإسكان و المدن الجديدة .. وكان حديث الكفراوى
مكافأة نفسية رائعة بعد المشقة فى الحوار والنقاش فى قضايا السياسة
والدين والتاريخ.. و انتصف الليل.. و استأذنت من الرئيس. وكأنه كان
يتوقع ذلك.. فقال الآن سوف أقرأ سورتى طه والأنبياء بعد ذلك أنام..
تصبحوا على خير..

- وأنت من أهل الخير ياسيادة الرئيس..

تمشيئا بعض الوقت فى وادى الراحة.. ومن بعيد جاءت سيارة
والتف مصباحها حول أحد الاحجار . فبدا كأنه تمثال لفتاة جميلة.
واندهشت.. ما الذى أتى بهذة الفتاة فى هذا الوادى المقدس؟!
ثم تنبهت إلى أن الذى أقوله لنفسى هو مجرد وهم. وهذا الوهم يدل
على أننى لم أتجرد تماما من آدميتى .. من جسمى.. من أحاسيسى
المادية التى هى إهانة لى ولكل النورانيات فى الأرض والهواء والسحاب
والجبال..

ورحت أهمهم. فسألنى الصديق حسب الله الكفراوى : ماذا تقول؟
الوحي نزل عليك.. هاها.. هاها..

قلت شىء غريب لا تصدقه.. ولا علاقة له بما قلنا وما سمعنا
وما حولنا.. إنما له علاقة بقضية معلقة فى رأسى من ثلاثين عاما.. فقد

حفظت نصف بيت من الشعر لبلدياتى الشاعر على محمود طه. وصف فيه تمثالا عاريا. مرفوع الصدر. أما الآن فإننى أتذكر هذا البيت وغيره من الأبيات فى هذه القصيدة.. الآن فقط ولأول مرة منذ كنت طالبا صغيرا. ورويت قصيدة فى الغزل..

ويبدو أن المهندس الكفراوى لم يستحسن هذا الشعر.. أو الانحراف بالخيال و السمو الروحى. إلى هذا المنحدر الحسى المادى اللعين.. واعتذرت له عن ذلك..

ولم يأت النوم بسرعة كما توقعت، فالهواء المنعش قد أراح الجسد. فلم أعد فى حاجة إلى راحة.. ولكنى نمت، وعندما صحت لم أجد رغبة فى أن أقرأ أو أكتب، ونزلت ورحت أتمشى فى وادى الراحة قبل أن تطلع الشمس وقبل أن يصحوا الناس، وقبل أن تنفض الجبال عنها الغلالات الغضبية من الضباب.. أو من الأفكار أو الأوهام أو الهموم..



استرجعت هذه السطور من «مذكرتى» ورحت أنعشها فى رأسى لعلى أريد أن أراها أمامى مرة أخرى..

ولما اتصلت بى سكرتارية الرئيس السادات يومى الأحد و الاثنين يؤكدون أن الرئيس يريدنى أن أذهب معه إلى وادى الراحة، أسعدنى ذلك، وتمنيت أن تكون سهرتى مع الرئيس أمتع و أروع.. ولا بد أن أنتهز الفرصة لكى أعرض عليه مشروعات كتب جديدة.. أو أسأله عن رأيه فى سلسلة «صالون العقاد».

وقد تفضل الرئيس السادات فسجل بصوته تعليقا أدبيا فنيا على أكثر من عشرين حلقة. وقد أسمعت هذه التسجيلات عددا من الأدباء د. لويس عوض، وقد أذهله فهم الرئيس السادات لمثل هذه القضايا الأدبية والفلسفية..

وكان الرئيس قد قرأ الحلقتين الأخيرتين عن وفاة العقاد فقال لي: يا أخى وجعت قلبي.. إنك لم تصف العقاد كيف يموت. إنك قتلتها وقتلتنا معه.. ياساتر.. أعوذ بالله.. لقد كان الوصف رائعا مروعا.. إنها صنعة.. منتهى الصنعة الأدبية.. و أعترف لك: إننى لم أكن أعرف شيئا عن الصالونات الأدبية، رغم أننى كنت معاصرا لها، إلا بعد ما قرأت لك هذا الذى كتبت.

وتحدثت إلى الرئيس فى التليفون ثلاث مرات يوم الاثنين. وفى كل مرة يسألنى؟

فأقول: طبعاً!

ويقول هو؟ .. إذن فسوف يكون عندنا وقت طويل للمناقشة والحوار.. - شكرا ياسيادة الرئيس..

وفى أحد الأيام بعث المهندس حسب الله الكفراوى بمن يطلب اللوحات التى رسمت لمجمع الأديان.. فأدركت أنه سيذهب إلى وادى الراحة، وأن نلتقى مرة أخرى..

وذهب خيالى بعيدا. وسجلت على الورق أسئلة كثيرة وقضايا عديدة.. وقررت أن أسال الرئيس عن أشياء يجرؤ الأجانب على مناقشتها ولكن أحدا منا لا يفعل ذلك..

وأمام التليفزيون جلست أتفرج على العرض العسكرى الذى توقف وانقطع. ولم أجد الذى أقوله ردا على أسئلة التليفونات. وعرفت.. وذهبت إلى مستشفى المعادى. ووجدت السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ومعه سكرتيره يطلب له أرقاما. ومعه نائب رئيس الوزراء نبوى إسماعيل.. وجاء السيد كمال على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية..

سألت السيد حسنى مبارك عن نوعية الذين أطلقوا الرصاص على الرئيس.. فأجاب لم تحدد بعد..

وهمس السيد نبوى إسماعيل فى أذنى قائلا: إن الأطباء يفعلون المستحيل! ثم ارتكبت أكبر غلطة فى حياتى: فقد تسللت إلى غرفة العمليات ورأيت الرئيس.. رأيت ما أعجز عن وصفه. وأطلب من الله أن يعجزنى عن وصف ذلك.. وأن يهبى القدرة الهائلة على نسيانه!

ثم لقيت د. محمد عطية طبيب الرئيس وقد خرج من غرفة العمليات فقال: لا أمل.. ورأيت د. أمين عفيفى زوج ابنة الرئيس ولم يجب. ثم وجدته قد أسند رأسه إلى الحائط وراح يدقه ويبكى..

وأما السيد ممدوح سالم مساعد الرئيس فقد جلس إلى جوار أسرة الرئيس وراح يبكى بحرارة وانهار..

أما السيدة جيهان السادات فقد كانت أشد تماسكا. وقد انهارت إلى جوارها د. زينب السبكي والسيدة قدريه صادق.

أما السيدة جيهان أنور السادات فقد جلست على مقعد أمام غرفة العمليات فى زهول. لا تكلم أحدا ولا يكلمها أحد.. ولم يفلح أحد فى أن يحركها من مكانها..

أما سكرتارية الرئيس وحرسه فقد ظهر عليهم الإعياء والإرهاق، والعيون دموية.. والملابس أيضا..!

قال لى د. مصطفى المنيلوى: لقد جاء ميتا إلى مستشفى المعادى..!

ونزلت السلالم على قدمى. و الملابس البيضاء تروح وتجنى بأطباء وممرضات، لقد اعتادوا على رؤية الحزن والدموع والبكاء.. و أصبح ذلك من معالم الحياة فى المستشفيات.. تماما كما تذهب إلى معهد الموسيقى فتسمع أنغاما وأصواتا وضبطا للآلات الموسيقية.. إنه جزء من الديكور اليومي للمرضى والأطباء.. وعلى سلم مستشفى المعادى وجدت عجبا..

لقد وجدت من يحمل البوت الأسود الطويل.. والبنطلون.. وقد تدلت من ذراعيه.. كأنها مشنوقة..

إنها بعض ملابس الرئيس أنور السادات..!!
إننى لا أنسى يوما جاء فيه الترزى إلى الرئيس يعرض عليه ملابس جديدة تحت الأشجار فى القناطر الخيرية.. ولم يكد يمر الترزى يحمل شماعة عليها هذه الملابس حتى وجدت أحد الحراس - لا شعوريا - قد اعتدل واقفا! سبحان الله.. ما أعظم حكمتك وما أقساها أيضا..

وقد لا يتبقى من الرئيس السادات شيء من ملابسه.. ولكن هو الذى سوف يبقى فكرا وقيما ومثلا عليا رفيعة.. إن حياة الرئيس نفسها نموذج للقوة و الرحمة والإرادة والنجاح والبصيرة و الإبداع.. إن الرئيس السادات ليس إلا واحدا من الذين طالبوا بنزع السلاح وتحويله إلى هدنة إلى صلح وإلى سلام دائم. وككل رسل السلام يموتون بالحديد والنار..

وفى ذلك دليل على أن هناك من لا يريد السلام.. ولكن توالى دعاة السلام يؤكد معنى آخر، هو أن هناك أغلبية ساحقة تريد السلام. وأن هناك أفرادا ناهيين يحرصون على ذلك حتى الموت.. هل أخطأ الرئيس السادات فى الحساب؟!، فقد عرض رأسه و صدره للملايين فى الشوارع، فلم يصبه أحد بسوء.. فانتقل فى استنتاجه إلى أنه إذا كانت الشوارع المفتوحة لم تمسه بسوء. فهل معقول أن يموت وسط جيشه الذى انتصر به ونصره والذى اعتز به وأعزه؟!.. إن منطقة الجيش هى منطقة «منزوعة السلاح»...

فذهب وتعرض وجلس ووقف سعيدا مزهوا.. ولكن واحدا من الأشرار مكلف بواجب واحد هو تنفيذ حكم الإعدام على رجل السلام!.. فهل أخطأ الرئيس؟! .. أو هل أصاب القدر؟! وهل صحيح أنهم أرادوه وحده، أو أنهم كانوا يريدون كثيرين. ولكن الرصاص قد نفذ؟.

وكان الرئيس لم يصدق ما حدث بسرعة، فتلقى الرصاص ووقف يرى إن كان صحيحا ما حدث، وكان الرصاص أسرع. فلم ير الرئيس

ما حدث ومات وهو لا يعرف إن كان قد مات.. ولا أحد يصدق أنه قد مات..

إن ملايين من المصريين قد أسلمتهم الحيرة إلى الذهول. وجاء الذهول فحبس دموعهم وصرخاتهم. و العالم من حولنا يصلى ويبكى ويعزينا ويواسينا. ولا يفهم بالضبط ماذا حدث في مصر..

إن الذين وقفوا بالملايين في شوارع المنصورة لتحيته، بكوا بعمق وأسى فلم يخطر ببالهم أنهم خرجوا لتحيته لآخر مرة، ولم يستمتعوا بامتنان الرئيس لهم وقتا طويلا.. إنهم يشعرون كأنهم قتلوه بالفرحة.. وأن الأيدى التى صفقت للرئيس فى ذلك اليوم، قد انتقلت إلى لطم الخدود على فقيد مصر العالى، على فقيد العروبة التى سوف تعرف متأخرا جدا ما الذى فعله من أجلها.. وعلى فقيد السلام الذى لم يكمله بين الطوائف وبين مصر والعرب..

إن الرئيس السادات قد وعد فأخلف هذه المرة. لقد وعدنى بأن أرافقه إلى وادى الراحة.. ولكنه ذهب وحده إلى الراحة، ولكن عن طريق آخر..

ولم يشأ أن يذهب إلى وادى الراحة بلا جنازة رسمية.. فانطلقت له المدافع وانتقل بالطائرة إلى المستشفى.. إنه لم يشعر أنه ركب أو هناك طائرة أو مستشفى..



ولا أدعى أننى كتبت أو قلت، إنما أحاول أن أجعل للذى أقوله معنى، وأن يكون هذا المعنى هو الحزن الذى لا قرار له..

وإذا كان الناس قد أصيبوا بالذهول فإن الذى أصابنى هو الذهول
و الهذيان.. وإذا كنت لم أمش فى جنازته بعد، فقد أقمت جنازة من
الكلمات والمعانى والنقط السوداء كأنها دموع مبعثرة..

إنها محاولة يائسة: فأنا أريد أن أبعد عنه لأراه أوضح.. ولكن
لا أستطيع، فأنا قد التصقت عينى به فلم أعد أراه بوضوح.. بل إن
الرئيس السادات لم يكن بعيدا عن العين. إنما هو العين التى ترى
بها، و اليد التى تبني، و القلب الذى يخفق، و العقل الذى يدبر..
و الأمل الذى ضاع..

والله قادر على كل شىء. فكما وهبنا السادات فسوف وجود علينا
بمن يخلفه فيعوضنا عن غيابه، ويقوم بإحيائه فى نفوسنا وعلى أرضنا:
كرامة وسلامة !!
